اسكوتلندا
بلاد تنطق جمالاً يعيش خارج أبعاد الزمان

عندما تلقيت دعوة لزيارة اسكوتلندا، لم أتردد لحظة في قبولها رغم أن مدتها كانت يومًا و نصف اليوم.

فزيارة اسكوتلندا تعني أن أكون و لو افتراضيًا وسط عدسة هوليوود التي برعت في عكس جمال هذه البلاد ذات الجبال التي تعانق أطراف السماء بكل درجات الأخضر و تموّجاته، يخترق صمتها المدوي و جمالها العجائبي صوت ميل غيبسون الهوليوودي الذي جسّد شخصية وليام والاس البطل الاسكوتلندي و رمز الاستقلال في فيلم بريف هارت Braveheart ، برؤية ملحمية متكاملة الأبعاد من حيث الموسيقى و المعارك التي دارت في ربوع خضراء تظن أن الشاشة تلاعبت بألوانها لتخدر الحواس إلى درجة يعجز الخيال عن تصوّرها.

و في التاريخ أن وليام والاس قائد اسكوتلندي تجرأ في القرن الثالث عشر على مواجهة فيالق جيش الملك إدوارد الأوّل الإنكليزي الذي حاول غزو اسكوتلندا. حملت هذه الصور الهوليوودية في حقيبة أفكاري و حلّقت بها إلى أدنبره عاصمة اسكوتلندا. العبور الأوّل كان عبر مطار شارل ديغول في باريس، ثم حلّقنا مرة أخرى نحو أدنبره.

و صلنا إلى مطار ادنبره الدولي و اخترقت بوابة المطار لأجد زخّات مطر تستقبلني. استغربت الأمر لأنني كنت أتوقع طقسًا صيفيًا أو خريفيًا في شهر آب/ أغسطس و لكن توقّعاتي كانت في غير محلها، فلسعات البرد رحّبت بي و كأنها تؤنبني لأنني لم أحضر بملابس سميكة، فقررت التظاهر بأنني لم أتأثر بها.

دارت بنا السيارة في قلب مدينة تضج بالأخضر إلى أن وصلنا إلى فندق داكوتا أندبره. لفتتني هندسة الفندق الخارجية التي تشبه صندوقًا زجاجيًا أسود رمي وسط الأخضر، ليفاجئني باطنه بالأسلوب الهندسي الدافئ الذي يرتكز على النمط الاسكوتلندي بكل أبعاده.

رحت أفتش في حقيبتي عن سترة سمكية تقيني من البرد و لكن عبثًا حاولت، فقلت لنفسي هذا قصاص من لا ينظر إلى حال الطقس في البلاد التي يسافر إليها. بعد حوالي الساعتين تعلّمنا خلالهما طريقة قيادة سيارة اللاند- روفر L4 الجديدة و التقنيات الموجودة فيها، استقل كل اثنين سيارة. أردت اختبار القيادة في أدنبره فقد كان من الغريب عليّ أن أجلس يمينًا لأقود و أنا التي اعتادت القيادة يسارًا منذ أن كنت في السادسة عشرة. الغريب أنني استطعت أن أبرمج دماغي على هذا الأساس رغم أنف نظرية فرويد، فلم يغلب عليّ لاوعيي القيادي و سقطت مقولة « الطبع يغلب التطبّع ».

من الجميل أن تبدأ مغامرة التعرّف إلى المدن وحدك و دليلك يكون فقط جهاز Navigation السيارة الإلكتروني، يرشدك إلى الطريق و إذا أخطأت الاتجاه يجد لك الحل. خرجت من أندبره و رحت أقود السيارة وسط روابٍ سقطت ألوانها من السماء فبدت لي زخّات المطر التي كانت تثور أحيانًا فتشتد و تهدأ أخرى فتصبح لطيفة، و كأنها تنبثق من السحاب الذي يخلط الألوان في لوحته السماوية تبعًا لمزاجه و يقذفها إلى الأرض بدرجات من الأخضر و اللون الترابي لا نهاية لها.

وصلت إلى مطعم ميغجيت ريزرفوار Megget Reservoir الموجود في غابة أتريك و يقع غرب كابر كلوش و سانت ماري لوش و شرق خزان تالا. تخيّل أنك تتناول غداءك في مطعم يقبع في قلب خزان مائي سعته ٦٤ مليون طن من المياه يروي مدينة أندبره التي يبلغ عدد سكانها ٤٥٠٠٠٠ نسمة.

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

لم يخف أحد من المكان رغم أنه يقف فوق أرض صلبة. بعد الغداء نزلنا إلى الطبقة السفلية حيث قام مصمم اللاند - روفر من مجموعة L4 بشرح التصميم الجديد لهذه السيارة الرباعية الدفع و بعدها بدأت مغامرة قيادة الأوف رود.

لحسن حظي أن شريكي في القيادة كان اسكوتلنديًا وكان متسامحًا و قال لي: « يمكنك القيادة فقد أمضيت ثلاثين عامًا أقوم بقيادة الأوف رود، و هذه ستكون تجربتك الأولى فاستمتعي بها قدر ما تشائين».

بدأت المغامرة منذ اللحظة التي تركنا فيها ميغجيت ريزرفوار. و بدأت اختراق طرق إسفلتية ممهدة و سهلة تتناثر على أطرافها الروابي التي بدت لي أثناء استراقي النظر إليها و أنا أقود، أنها تراقبني و تتحداني ما إذا كنت سوف أنجح في عبور أروقة أدغالها أم لا!

بعد قيادة استمرت حوالي الساعة التزمت خلالها قانون السرعة التي كانت تزيد أحيانًا إلى الحدود القصوى و تنخفض أحيانًا كثيرة تبعًا للوحات الموجودة على الطريق، و خوفًا من عدسة كاميرات السرعة المختبئة في صناديق يفاجئنا حضورها في طريق معزولة تتحكم في سباق أبدي بين الزمن والمسافة لتنتصر معادلتها.

وصلنا إلى بلدة روكسبراغ و كانت هادئة تنتشر فيها البيوت التي تتدلى من نوافذها و شرفاتها الصغيرة أصص الزهور بكل الألوان و الأشكال، و كأنها جزء من الطبيعة. يغلب الطابع الباروكي و القوطي على الهندسة المعمارية حيث تنبثق من القصور الكبيرة و الصغيرة أبراج يخترق سكونها هدير نهر تويد الذي يخترق البلدة. كل شيء كان هادئًا ما عدا أصوات الطبيعة حيث الماء و الهواء يتلاعبان بفضاء المدينة، و كأنهما اختاراها موطنًا لهما.

قطع دهشتي بجمال المدينة صوت شريكي في القيادة: «أرأيت كم هي جميلة روكسبراغ فلا عجب أن يتخذها الأمراء و الدوَقة مقرهم الصيفي». بعدها توجّهنا إلى المنطقة التي تنطلق منها مغامرة الأوف رود، حيث كان في انتظارنا أحد مندوبي اللاند- روفر و شرح لنا كيف نجتاز نهر تويد و نصعد إلى الضفة الأخرى منه. كنت أظن أن اجتياز النهر بالسيارة مجرّد خدعة تقوم بها العدسة الهوليودية أو التسويقية إلى أن ثبت لي عكس ذلك وجرّبتها بنفسي، فكانت أول الغيث.

بعد اجتياز النهر توجّهنا إلى قصر Floors Castle الذي يقع في قلب الوادي بين نهر تويد و قمم شيفيوت. بناه الدوق الأوّل لروكسبراغ عام ١٧٢١ و تحوّل إلى متحف في الحاضر رغم أن مالكيه ينظّمون احتفالاتهم الخاصة فيه.

توقفت السيارات أمام مدخل القصر الرئيسي و نزلنا لاستراحة شاي في الطبقة الأولى للقصر حيث عبّر بهو الدخول عن الروح الأرستقراطية لمالكي القصر و هم من سلالة دوق روكسبراغ الأوّل. تتوسط البهو طاولة مستديرة و علّقت على جدرانه لوحات زيتية من أعمال الإيطالي بامبيو باتوني.

يتألف القصر من ١٣٤ غرفة و جناحًا، و لكن لم يسمح لنا إلا بزيارة أجنحة الطبقة الأولى. البداية كانت في Ante Room The . يشير حجم هذه الغرفة الصغيرة و الجدران الضخمة إلى أنها كانت واحدة من الأجزاء العتيقة للقصر. أعاد تصميمها وليام آدم على نمط جيورجي، تطل شرفاتها على مشهد بانورامي و مشهد نهر تويد ينساب عند أقدام هضاب شيفيو، و على الشجرة العملاقة الموجودة في متنزه القصر حيث قتل ملك اسكوتلندا عام ١٤٦٠.

كل شيء في الجناح لا يزال على سيرته الأولى ما عدا صور أصحاب القصر من الجيل الجديد التي وضعت على الطاولة. ثم توجّهنا إلى غرفة الجلوس التي لا تقل روعة و حميمية عن جناح

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

ذي آنت روم، و في جناح الرسم لوحات زيتية عملاقة و أثاث فخم يشير إلى الذوق الرفيع للأجيال التي سكنت القصر. أما صالة الرقص فتخيّلت الدوقات يتمايلن فيها بفساتينهن المزركشة أثناء رقصة فالس اختلط فيها صوت الموسيقى بحفيف فساتينهن بخفر. من الجميل أن تتجول في عالم الطبقة المخملية، و تتقمص حياة الترف و لو للحظات.

بعد استراحة مخملية عدنا و ركبنا سيارات اللاند - روفر لنخوض مغامرة ترف من نوع آخر في قلب طبيعة لا يمكن أحدًا أن ينافس ديكور مهندسها. اخترقت أروقة و حل ضيّقة كانت تفاجئني بحفر مائية في قاعها أحجار صخرية، أتخلص منها لأفاجأ بشجرة عملاقة تراقبني عند منعطفٍ قاسٍ عليّ صعوده... أنتهي من هذه المهمّة لأجد نفسي ملزمة عبور جسر حديدي متعرّج، و الحمد لله أنه جعل للإنسان عقلاً يبتكر، فلولا التقنيات الحديثة التي تتوافر في اللاند روفر لما كان في إمكاني أن أعبر الممرات الضيقة التي تقف على حافة وادٍ أو أتجنب الصخور، إذ كان يكفيني أن انظر إلى الكاميرا الموجودة في اللوحة الأمامية للاند- روفر حتى أتجنب كل العوائق الطبيعية و أخطارها، و أضغط على أزرار التحكم حتى أغيّر أحوال السيارة تبعًا لهوى الطبيعة.

بعد اختراق الغابة التي بدت لي أنها جعلت كل عناصرها متأهبة لتتحداني و تتحدى كل بقية الفريق الصحافي المشارك في هذه المغامرة، ظننت أنني انتهيت و خرجت منتصرة على كل تقلبات الطبيعة و أهوائها فإذ بأحد العاملين في لاند- روفر يظهر عند مفترق طريق يوقفني ليخبرني عن المرحلة الأخيرة للمغامرة.

فقال لي: « أترين ذاك الجسر؟ و كان شاهق الارتفاع، و اسمه «روكسبراغ فيادَكتْ»، و هو أقدم جسر في راكسبراغ يربط المدينة القديمة بالحديثة، عليك تجاوزه «فقلت له، حسنًا إنه مجرّد جسر». و لكن عندما وصلت إلى مدخله، أوقفني مندوب آخر شارحًا لي كيف عليّ أن أصعد الجسر الحديدي الذي يقف على الجسر و هذا ما لم يكن عاديًا. مما يعني ارتفاعًا صناعيًا ضيقًا فوق ارتفاع طبيعي واسع.

أخيرًا انتهت المغامرة بسلام وعدت لأخترق طرقًا اسفلتية إلى أن وصلنا إلى فندق روكسبراغ حيث سأمضي ليلتي. كانت الشمس قد بدأت تغير ألوان الأفق الأخضر، لتتيح المجال لليل يتلاعب بأنظارنا و أوهامنا.

فقد علّق أحد زملاء الرحلة بالقول إن الهدوء في هذه المنطقة مهيب خصوصًا في الليل إلى درجة أنك تسمع الأشباح، و بحسب أوهامه أنه سمعها في إحدى المرّات إلى درجة أنه طلب من صديقه أن يبيت معه في الغرفة خوفًا.

أما أنا فقد تآمرت مع الليل و أوهامه و قلت له: «ربما لأن المنطقة فيها جداول و سواقي ماء أينما ذهبت، و عمومًا يقال إن الجن تحب السكن في المناطق التي يوجد فيها ماء»، فزدته رعبًا.

ذهبت إلى غرفتي التي كانت في الطبقة الأرضية و فتحت نافذتيها المشرفتين على الحديقة رغم البرد، و رحت أتأمل الجمال المحتشد الذي ذكّرني بمدينة بادن - بادن في ألمانيا. شعرت بالرهبة و كما يقول المثل انقلب السحر على الساحر،

فأنا التي كنت منذ لحظات أعزز رعب زميل الرحلة بدأت الأوهام تجتاحني. فهنا لا تسمع سوى أصوات الطبيعة و كأنها سمفونية يتبارى موسيقيوها في التلاعب بمشاعرنا الإنسانية، فقطرات المطر تتساقط بخفر على العشب الأخضر، و الريح يراقص الشجر فيتحوّل حفيفه إلى نوتة موسيقية غريبة، جعلتني أحدّق إلى ظلال الشجر و أتخيّل أشكالاً غريبة ليست موجودة إلا في مخيّلتي، فما كان مني إلا أن أغلقت النافذة، و قطعت حبل الأوهام، و خرجت من الغرفة مسرعة لأتناول العشاء مع باقي الفريق الصحافي.

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

غلبني النعاس و عدت إلى غرفتي بعدما جعلت وعيي ينتصر على غريزة الخوف و سطوة الأوهام، و غططت في نوم عميق لم أفق منه إلا عند ساعات الصباح عندما بدأ المطر يطرق زجاج النافذتين.

تكرر المشهد الجمالي فقررت الذهاب إلى الحديقة التي شغلتني أخيلتها الليلية. كان الهواء نقيًا إلى درجة شعرت فيها بأنني وسط عالم عذري لم يسمح لتكنولوجيا العصر بأن تجتاحه.

تناولت الفطور ، و عدنا واستقلينا سيارات الرانج روفر لنخوض مغامرة أخرى من مغامرات الأوف رود. و شريكي للمرة الثانية يسمح لي بالقيادة. تكررت المشاهد الساحرة إلى أن وصلنا إلى مركز لشركة لاند- روفر رمي بين أحضان الطبيعة.

و بعدما شرح لنا المسؤول في الشركة عن التقنيات الجديدة المتوافرة في سيارات الرانج روفر، كان علينا تجربتها. المغامرة الأولى هي قياس السرعة القصوى و التوقف المفاجئ، إذ كان على كل واحد أن يصل إلى سرعة ١٦٧ كيلومترًا خلال دقيقة ثم التوقف فجأة. الحقيقة أني لم أجرّبها إذ يكفي أن عشت التجربة مع المدرّب إلى درجة شعرت فيها بأن الأدرنلين قد وصل إلى أقصى حدوده. غريب كيف أن غريزة الخوف أحيانًا تجعلنا نستسلم لها رغم أننا ندرك أنه لن يصيبنا مكروه، و لكنه الخوف! و بعدها كان علينا تجربة السرعة خلال الدوران و كان فيها تحدٍ جميلٍ خضته.

و بعد تجارب السرعة عدنا إلى مغامرة الأوف رود بكل أخطارها و تحدياتها، فتخيّل أن عليك أن تنزل بسيارة رباعية الدفع في حافة من دون أن تهوى. كنت سأتخلى عن الأمر خصوصًا حين رأيت عجلتي السيارة الخلفيتين التي كانت أمامي قد صارتا في الهواء، و كل التركيز على العجلتين الأماميتين، و لكن لم أسمح لخوفي أن ينتصر عليّ و قلت في نفسي إن القيمين لو لم يكونوا متأكدين من أنه لن يصاب أحد منا بمكروه لما نظموا هذا النوع من الرياضات. كما أن شريكي في القيادة شجعني على خوض هذه التجربة لأني و بحسب رأيه سائقة ماهرة، رغم أنني امسك المقود بيد واحدة.

فهو في الأصل أستاذ تعليم قيادة. و بعدما انتهينا من هذه المغامرة بدأنا الصعود نحو جبال يطغى عليها اللون البنفسجي بكل درجاته. وصلنا إلى كوخ مرمي عند قمة الجبل و كان البرد قارسًا، فدخلنا إليه لتناول الغداء، و كما يقول المثل «الدفا عفا و لو في عز الصيف»، فكيف إذا كنت في بلاد لا تعرف الصيف؟

تناولنا الغداء و صار الجميع يتحدثون عن هذه المغامرة التي لا يمكن أحدًا أن ينساها. أما أنا فكان لدي سؤال فضولي منذ اللحظة الأولى التي وصلت فيها إلى اسكوتلندا، و هو لماذا تلفظ أسماء أدنبره Edinburgh و روكسبراغ Roxburgh و غيرهما من المدن بخلاف ما تكتب؟ طرحته على الشابة الاسكوتلندية التي كانت برفقتي فكان الجواب: « هكذا. ربما لنتميز عن الإنكليز». و سألتها لمَ لم أرَ رجالاً يرتدون الزي الاسكوتلندي التقليد أي التنورة فضحكت و قالت: يرتدونه في المناسبات التقليدية و في المهرجانات الفولكلورية، و ليس كما ترين في أفلام هوليوود».

انتهينا من الغداء و كان علينا العودة إلى مطار أدنبره. خلال خمسين دقيقة تكررت المشاهد و هذه المرّة لم أقد السيارة بل تركت المهمة لشريكي في القيادة الذي أراد ذلك و أنا لم أعترض لأنني أردت أن أودّع اسكوتلندا و أخزن في ذاكرتي صورًا لطبيعة أقل ما يقال عنها إنها فردوس أرضي سقط سهوًا من حساب الزمن الأرضي فانبلج سحرًا ...

النسر العربي الدولية © ٢٠١١